دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

سيرة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب في المصادر التاريخية والأدب الشعبي
دراسة مقارنة

د. سماح عبد المنعم السلاوي
دكتوراه تاريخ إسلامي وسيط
جامعة عين شمس
جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

تتناول هذه الدراسة شخصية السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب من خلال اتجاهين؛ أحدهما يمثله المصادر التاريخية المعاصرة التي تناولت سيرة الصالح نجم الدين أيوب سواء كانت سيرة منفردة أو مؤلفات اهتمت بالحديث عن سلاطين وأمراء بنى أيوب بصفة عامة، والاتجاه الآخر يمثله الأدبي الشعبي الذي يداعب خيال ووجدان الإنسان. وهذه الدراسة من ناحية أخرى تحاول تحديد نوع العلاقة بين الأدب والتاريخ: فهل هي علاقة ترابط وانسجام أم تنافر وتناقض؟ حيث رفض الكثير من الباحثين فكرة الاعتماد على السيرة الشعبية كمصدر من المصادر التاريخية الموثوق فيها للحصول على مادة علمية دقيقة، نظرًا لأن الأدب الشعبي هو أدبًا شفاهيًا ليس مدونًا ولذا يتعرض للتحريف والتبديل بالزيادة أو النقصان. وعلى هذا النحو يمكن لهذه الدراسة أن تبين شخصية الصالح نجم الدين أيوب الروائية والتي اختلفت في بعض ملامحها عما استقرت عليه في أذهان المتلقين بحكم موقعها التاريخي، فقد بدت شخصيته ذات إرادة صلبة تنمو بنمو الأحداث، ونظرته تتجاوز الحاضر إلى المستقبل، وهو في صراع مستمر مع منافسيه حتى صار رمزًا للتصدي لأطماع الأمراء الأيوبيين والصليبيين حتى توفى في أرض المعركة، فكيف إذا صيغت سيرته وحياته في السيرة الشعبية؟ ولذا اتبعت منهج السرد والمقارنة بين المصدر التاريخي والسيرة الظاهرية. وقد توصلت الدراسة إلى أن الرؤية الشعبية لحياة الصالح رسمت له صورة تكاد تكون منسجمة ومتفقة مع المصادر التاريخية، فجعلت الصالح نجم الدين رجلاً صوفيًا زاهدًا في الدنيا، كما كان منشغلاً بحماية العالم الإسلامي من الخطر الصليبي ويبدو أن ذلك شغل بال الراوي الشعبي أيضًا فصار يشحذ سنان قلمه في مدحه ووصفه بصاحب الكرامات واعتبره ولى من أولياء الله الصالحين وجعله البطل المغوار في مواجهة الصليبيين والمغول، وعلى العكس تمامًا تجاهلت السيرة الشعبية ذكر أبيه السلطان العادل الذى تنازل عن بيت المقدس للصليبيين فكان ذلك بمثابة الطامة الكبرى على العالم الإسلامي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٦ يوليو ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المماليك؛ المغول؛ الصليبيين؛ التصوف؛ الكامل الأيوبي؛ الخوارزمية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.184696

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سماح عبد المنعم السلاوي، "سيرة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب في المصادر التاريخية والأدب الشعبي: دراسة مقارنة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ٣٨ – ٥٤.

Corresponding author: samah.elsalawey@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

في البداية يجدر بنا أن نضع بعض الخطوط العريضة لهذه الدراسة فقد قسمت إلي: أولاً: مقدمة كمدخل للموضوع وتوضيح أهميته وما قدمه السابقون فيه. ثانيًا: تمهيد للتعريف بالسيرة الظاهرية وأهميتها كمصدر تاريخي. ثالثًا: مجمل سيرة الصالح نجم الدين أيوب في السيرة الظاهرية. رابعًا: أهم قضايا سيرة الصالح نجم الدين أيوب ودلالاتها التاريخية. خامسًا: شخصيات وأحداث مهمة أغفلتها السيرة ولماذا لم يهتم بها الراوي الشعبي؟ (محاولة للتفسير). سادسًا: خاتمة تتضمن أهم ما توصلت إليه الدراسة.

هناك بعض البحوث الأكاديمية التي تناولت حياة الصالح نجم الدين أيوب ودوره العظيم في توحيد مصر والشام واستعادة معظم الأراضي التي استولى عليها الصليبيون في الساحل الشامي وعلى رأسها القدس الشريف، وصراعه المستمر مع أعمامه وأبنائهم للوصول للسلطة، وكذلك نجدته للخليفة العباسي من خطر التتار، ناهيك عن تصديه للحملة الصليبية السابعة رغم صراعه مع مرضه الشديد، ولكن لم يمهله القدر الوقت الكافي ليرى ثمرة جهده لحماية العالم الإسلامي. وهنا بدت شخصية الصالح نجم الدين أنها ذات إرادة صلبة قوة تنمو بنمو الأحداث ونظرته تتجاوز الحاضر إلى المستقبل، وهو في صراع مستمر حتى صار رمزًا للتصدي لأطماع الأيوبيين وظهر بمظهر المجاهد الذي يدرك واجبه حقًا نحو أمته في صراعها ضد الصليبين.

ومن هذه البحوث: فريد وحيد، جهاد الصالح نجم الدين أيوب في توحيد مصر والشام، محمد يونس، الملك الصالح نجم الدين وعلاقته بالقوى السياسية، فواز نصرت، مدينة دمياط وأهميها في الحروب الصليبية، بالإضافة إلى دراسات أخرى، وفى الأدب هناك رواية شجرة الدر لمحمد سعيد العريان ورواية أخرى تحمل نفس العنوان لعبد السلام العشري. وهكذا رآه التاريخ ولكن كيف نظر إليه العامة؟ وماذا شكلت حياة الصالح نجم الدين أيوب في الوجدان الشعبي؟ من هنا جاءت فكرة هذا البحث لتنظر فيما حمله العقل الجمعي للشعب المصري حول سيرة هذا السلطان، وبخاصة أن هذا العقل الجمعي قد مجد كثيرًا من الأبطال السياسيين والشعبيين في سير ضخمة، وصلت أحيانًا إلى آلاف الصفحات منها السيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة عنترة بن شداد، وسيرة سيف بن ذى يزن وغيرها.

وقبل الحديث عن الدراسة يجب أن نوضح أمرًا وهو تردد المؤرخون طويلاً قبل اعتماد الموروث الشعبي مصدرًا من مصادر البحث الأكاديمي في مجال الدراسات التاريخية، حيث نظروا إلى الموروث الشعبي من السير والملاحم على أنها مجرد ضرب من الأساطير تتناسب مع بساطة فكر العامة، ومن ثَمَّ لا يركن إليها في البحث التاريخي الجاد. غير أن التطور الديمقراطي والاشتراكي فيما بين الحربين العالميتين، وما صاحبه من الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي قد أديا إلي ظهور اتجاه جديد في مجال الكتابة التاريخية عده البعض ثورة تاريخية تجلت في الربع الأخير من القرن العشرين، وأهم مبادئ هذه الثورة أن التاريخ ليس مرادفًا لسير الحكام وحروبهم، لكنه مرادف لمسيرة البشر الحضارية على سطح كوكب الأرض، منذ أن وطأته قدم الإنسان وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى هذا فكل ما صدر عن البشر، أيًا كان خيرًا أو شرًا، ماديًا كان أو معنويًا، جزء من التاريخ له دلالاته وأهميته ويجدر دراسته والاستفادة منه مهما كان صغيرًا أو كما يبدو غير جدير بالملاحظة.[١]

ولذا وجب علينا توضيح ماهية السيرة الشعبية العربية وكيفية الاعتماد عليها كمصدر تأريخي مهم، ثم التعريف بالسيرة الظاهرية؛ فالسيرة الشعبية العربية فن أدبى أبدعته العقلية العربية في فترة من فترات تاريخها وقد جاء يلبى حاجة المجتمع الذى أفرزه، وهو فن قصصي له خصائصه التي تجعله يختلف عن جميع أنواع القصص العربي وهى ليست أسطورة أو خرافة رغم إغراقها في الخيال وليست حكاية شعبية تتناول حياة الناس، كما أنها ليست ملحمة رغم اشتمالها في أجزاء معينة على الملاحم خاصة في الحروب التي يخوضها البطل في الدفاع عن أمته كما أنها ليست رواية بالمفهوم الحديث[٢]، ويشاركه الرأي أحمد شمس الذى يرى أن "السيرة فن نبت وتطور وارتقى قبل أن تظهر الرواية وهى فن قائم بذاته بين الأنواع الأدبية فإضافة لفظ رواية لعمل له قوانينه الخاصة التي استقرت والرواية لم تستقر بعد له عدة سمات تتطور والسيرة الشعبية فن له قواعده المكتملة ولذا لا يمكن تطبيق قواعد فن ما على فن لم يكتمل بعد.[٣]

هذا وتعتمد السير الشعبية عامة على جذور تاريخية حقيقية فما من سيرة من السير إلا وتدور حول بطل كان له وجود في التاريخ يومًا ما وقام بأفعال جليلة وخاض حروبًا ومعارك في سبيل قيم سامية مما جعل شهرته تسبقه إلى كل مكان. وهذه الجذور التاريخية تعتبر النواة الأولى التي يقوم الفنان الشعبي ببناء سيرته عليها فهو يرى الحقيقة التاريخية شيئًا

أشبه بهيكل عظمى فيكسوها بخياله الفني لحمًا وينفخ فيه الروح الإبداعية، ومن المهم أن نشير إلى أن الحدث التاريخي حينما يعود إلينا حيًا بفضل الإبداع الفني لا يعود بصورته التاريخية الدقيقة ولكن في الإطار العام للقيم والمثل والأخلاقيات التي يمثلها الفنان تعبيرًا عن المجتمع.(٤)

فالفنان الشعبي يأخذ الحدث التاريخي ويضيف إليه من خياله وقائع وأحداثًا كثيرة ويعتمد في ذلك على بقايا الأساطير والخرافات ليلبى حاجة ثقافية ونفسية للشعب صاحب المصلحة، وبالتالي فالسيرة ليست مقيدة بترتيب الأحداث التاريخية بل تقوم على حرية الاختيار التي يمنحها الفنان لنفسه، كما تقوم على الربط بين الأحداث التي ينتجها الراوي، ولأن الفنان الشعبي لا يهمه الحدث التاريخي بقدر ما يهمه تلبيه رغبة الشعب الذى يسمعه لذلك سرعان ما يتغلب الخيال على موضوعية الحدث التاريخي ليصور لنا تاريخًا جديدًا يعيشه الشعب(٥)، ، ويرى الدكتور قاسم أنه " إذا كان التاريخ يسجل سير الحكام والقادة والنبلاء، وشئون الحرب والسياسة ويسرد الأحداث، وهو ما نسميه بالتسجيل التاريخي للتاريخ فالموروث الشعبي يجسد عاطفة العامة ورؤيتهم للأحداث والقيم والمثل والأماني والتطلعات للمستقبل التي تتمناها الجماعة، كما أنه يدور حول عادات وتقاليد المجتمع وأخلاقه، ويعد نواة التاريخ ؛ إذ يحمل تفسيرات لأحداث تاريخية ويحكى عن أبطال تاريخيين بأسلوب مثقل بالخيال والرموز الشعبية التي تخدم أغراض العامة، وبذلك يمكن أن نصف الموروث الشعبي بأنه نوعٌ من القراءة الشعبية للتاريخ موازية للقراءة التاريخية ذاتها ؛ بمعنى أنه يعكس رؤية الجماعة لتاريخها وهو ما نسميه أيضًا بالتسجيل الشعبي للتاريخ، وفيه نجد الفنان الشعبي يعبر بقسوة شديدة عن الكراهية الشعبية لمن يقف ضد مصلحة الناس، وأمانيهم وضد مَنْ يتسبب في إيذائهم ويدين من يخون المثل العليا والقيم التي تمثل النظام الأخلاقي للمجتمع (٦)

والحقيقة أن فكرة الاعتماد على السيرة الشعبية قد وصل متأخرًا إلي عالمنا العربي وربما يكون بطء الحراك السياسي له دور في هذا التأخر لكنها على أي حال وصلت، وبدا هناك اتجاه متزايد بمجال التاريخ الاجتماعي، ومن ثم حدث تطور في الأدوات التي يعتمد عليها المؤرخ، ذلك أن التاريخ الاجتماعي يهتم بالتركيب الاجتماعي والبناء الطبقي والعادات والتقاليد والحرف والأسواق، والمصادر التقليدية للتاريخ لا تفي بتغطية كل هذه النواحي، ومن ثَمَّ لجأ المهتمون بالتاريخ الاجتماعي إلي استخدام أدوات جديدة ومصادر غير تقليدية في معالجة هذه الموضوعات ومن بين هذه المصادر السير الشعبية(٧)، وبالتالي فالسيرة الشعبية جزء من الموروث الشعبي الذى يشكل عالمًا رحبًا من ذاكرة الأمم، ويتكون من عناصر متشابكة من الموروث الحضاري والبقايا السلوكية والأقوال التي رسخت في عقول ونفوس البشر منذ فترات طويلة، كما يضم البقايا الأسطورية والفولكلور وفقًا لبيئته سواء كان باللغة العربية الفصحى أو باللغة العامية، وبالتالي فالتراث الشعبي إبداع عفوي أصيل يحمل ملامح الشعب ويحفظ سماته ويؤكد عراقته ويعبر عن همومه وأحلامه وآماله على مختلف مستوياتهم. وفي هذا السياق تأتي صورة الملك الصالح نجم الدين أيوب في السيرة الظاهرية. وفيما يتعلق بالدراسات السابقة حول هذا الموضوع، فقد ألمح إليه الدكتور قاسم في الفصل الخامس من كتابه "بين التاريخ والفلكلور" المعنون باسم "الشخصيات التاريخية في سيرة الظاهر بيبرس"(٨).

أولاً: التعريف بالسيرة الظاهرية

أما عن السيرة الظاهرية فتنسب إلي السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري، الذي حكم سلطنة المماليك خلال الفترة الممتدة فيما بين عامي (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) وقد وصل إلينا عدد من السير الرسمية التي دونها مؤرخون كانوا على صلة مباشرة بالظاهر بيبرس: الأولى الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لمحيي الدين بن عبد الظاهر (ت. ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)(٩)، الثانية حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية لشافع بن علي الكاتب (ت. ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م)(١٠)، وتاريخ الملك الظاهر لعز الدين بن شداد (ت. ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) (١١). أما السيرة الظاهرية التي هي مصدر للصورة الشعبية لموضوعنا، فملحمة شعبية ضخمة، دارت حول شخصية السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، أو تاريخ الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة (السلطان محمود الظاهر بيبرس) ملك مصر والشام، وأعماله البطولية التي قام بها ذودًا عن الإسلام وتصديًا لأعدائه من الصليبيين والمغول.

وهذه الملحمة في الأصل رواية شفهية يختلط فيها التاريخ بالخيال، ولا نعلم على وجه التحديد تاريخ تدوينها، لكن من الواضح من خلال مطالعة السيرة أنها دونت في القاهرة في العصر المملوكي وتطورت ونمت عبر السنين إلي أن أخذت شكلها النهائي في بدايات الحكم العثماني لمصر على الرغم من أن غالبية أحداث السيرة تجري في مصر، وأبطالها مصريون يتكلمون باللهجة المصرية ويستخدمون الأمثال الشعبية

المصرية، إلا أن أحداثها مع ذلك تغطي رقعة واسعة من العالم الإسلامي وشمال البحر المتوسط.

ويري الباحث الفرنسي فرانسيس جينل أن السيرة الشعبية للظاهر بيبرس قد بدأت في الظهور في القرن السادس عشر الميلادي، ومع انتشار المقاهي على نطاق واسع في القرن الثامن عشر الميلادي، صارت ملجأ للحكواتية سواء في مصر أو الشام ومن ثم صار لدينا عدة روافد لهذه السيرة الشعبية: الرافد الأول دمشقي والرافد الثاني حلبي والرافد الثالث قاهري ويؤكد جينل على أن الروايات الثلاث لا تختلف عن بعضها كثيرًا من حيث القصة أو الحبكة لكن هناك بالطبع اختلافات طفيفة من جراء اختلاف جغرافية المكان.[١٢] على أية حال فالمساحة الزمنية للسيرة امتدت إلى نحو قرنين ونصف من الزمان تعاقب خلالها مالا يقل عن ٤٥ سلطانًا.

وما يعنينا هنا الرواية المصرية التي طبعت في خمسين جزءًا، وزعت على خمسة مجلدات، كل منها يحوي ستمائة صفحة تقريبًا، وهي في الأصل تدوين لرواية شفهية مليئة بالأشعار المرتجلة والكلمات العامية، وهي الطبعة التي اعتمدت عليها في هذا البحث.[١٣]

ثانيًا: مجمل سيرة الصالح نجم الدين أيوب في السيرة الظاهرية

في البداية آثرت أن أقدم مجملاً للسيرة بالترتيب الذي ورد في السيرة الظاهرية، حتى يكون لدى القارئ خلفية أو صورة متكاملة عن الشخصية والأحداث تمكنه من تتبع الدلالات التاريخية لهذه الصورة.

يقول الراوي الشعبي أنه أثناء مرض صلاح الدين الأيوبي جعل ولده الملك الكامل الأيوبي نائبًا عنه في الحكم وبعد وفاته تولى السلطة رسميًا، وقد أنجب ولداً سماه نجم الدين الذى تربى ونشأ في مصر وكان عارفًا بأمور السياسة والحكم والشريعة، وكتب له أبوه الكامل وصية بتولي العرش من بعده، ثم تزوج نجم الدين وأنجب الصالح وأطلق عليه الصالح نجم الدين، وكان محبوبًا لدى والده الذى بدوره كتب له وصية في يوم مولده بولاية العهد من بعده وشهد عليها الأمراء والأعيان، وقد عاش الأب نجم الدين إحدى عشرة سنة وقيل تسعًا وقيل سبعًا ولكن الراوي الشعبي يرجح أنه عاش تسع سنوات، ثم توفى وتولى الصالح نجم الدين أيوب حكم البلاد.

ثم تصف لنا السيرة الصفات الطيبة في الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وصار أكثر تدينًا وإيمانًا فأحبه الأكراد وسموه الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب، ولذلك كان كلما خرج من قصره يلتف حوله الأكراد وهم يرتدون ملابس الصوفية وتتوالى السنوات والصالح نجم الدين يحكم بالعدل والشرع بين الناس، وذات يوم إذا بأربعة رسل يأتون إليه في القلعة ويخبرونه بأنهم رسل السيدة فاطمة شجر الدر بنت أمير المؤمنين المقتدر بالله وأنها المالكة الحقيقة لمصر بحجة من أبيها الخليفة وليست ملكًا للأكراد ولها الحق في تولية من تريده، فغضب الصالح نجم الدين من ذلك وخاصة بعد تأكده من صدقها فيأمر وزيره بمقابلتها ويطلب منها الحضور إلى القصر، وتم اللقاء بين شجر الدر والصالح نجم الدين وعندما وجدها مصممة على استعادة أرض مصر فلم يجد مفرًا من طلب منها الزواج ليضمن بقاء السلطنة في يده ولبنى أيوب من بعده كما نصحه وزيره، ولكنها رفضت في بادئ الأمر، و يتدخل الخيال الشعبي ويستغل الصالح نجم الدين ولى الله المجذوب كراماته تجعلها توافق على الزواج، وتظل طوال اثنى عشر عامًا تحج سنويًا إلى الحجاز وهى بكر عذراء ثم يتم الزفاف في مسجد الحسين.

ويبدو أن شهرة الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب في الزهد والعبادة وترك شهوة السلطة والحكم جعلت الملوك من حوله يحاولون انتهاز الفرصة للاستيلاء على مصر ومنهم ملك الموصل المسمى أيبك التركماني الذى وصل إلى حلب فقام نائبها بإغلاق الأبواب ومحاربته حتى أصابه الله بالمرض وهلك معظم جيشه، ولكن الملك الصالح الرجل الفقير المكشوف عنه الحجاب يعلم بحملته فيأمر بفتح أبواب حلب، ولا يعترضه إذا أراد المسير إلى جهة مصر والشام معتمداً على الله القدير، وخلال مسيرته يتعرض أيبك وجيشه للمتاعب بفضل كرامات الصالح نجم الدين حتى يصل أيبك التركماني إلى مصر ويطلب الصفح والغفران من الملك الصالح نجم الدين أيوب ويؤمن بكراماته فيصفح عنه ويوليه وزيرًا.

ثم يشعر الصالح نجم الدين أيوب بالخطر فيأمر على الفور بضرورة شراء عدد كبير من المماليك وحدد لتاجر الرقيق الصفات المطلوبة في المماليك وجنسياتهم وصفات مميزة لمملوك وحيد وهو بيبرس الذى يتربى في كنف الصالح نجم الدين أيوب ويواجه شدائد ومؤامرات من الأمير أيبك والقاضي المزيف جوان، ولكن العناية الإلهية تنقذه كل مرة وكذلك كرامات الملك الصالح، حتى يأتيه الخبر من حلب بوصول المغول إليها وعدتهم اثنان وثمانون ألف فارس مع الخان هلاوون بن منكتمر يريدون اقتحام المدينة والاستيلاء على بلاد الشام وحاكم حلب يطلب المساندة من سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب

والذى بدوره أرسل الأمير بيبرس وأيبك وقلاوون لنجدة حلب ومحاربة المغول، وأثناء السفر وعند قلعة العريش وجد بيبرس كمين أعده له الملك فرنجيل الصليبي لينتقم منه بعد أن قتل ابنه توما، ولكن بيبرس يتغلب عليه ويكمل مسيرته إلى حلب ثم يحاول أيبك الاتفاق مع المغول للتخلص من بيبرس فى حين يقوم عيسى الناصر شرف الدين حاكم الشام بغلق الأبواب في وجه بيبرس، ثم يسافر الملك الصالح إلى الشام ويسجن عيسى الناصر ويتقدم إلى حلب بنفسه ليتابع سير المعركة ويشارك فيها ومعهم الفداوية أولاد إسماعيل والتي انتهت بانتصار بيبرس على المغول وهروب هلاوون.

ويحظى بيبرس بمكانة مميزة لدى الملك الصالح الذى يسانده ويأتي له في منامه عدة مرات ويظهر كراماته ويقف بجواره في كل محنة ويتنبأ بمستقبله الباهر وبأنه سيصبح سلطانًا على البلاد من بعده ومن يتولى قبله سيقتل على الفور، وتتوالى الأحداث ويقوم القاضي المزيف بإرسال خطاب مزيف باسم ملك القسطنطينية إلى الصالح نجم الدين أيوب يهدده بأنه إذا لم يعيد فتح كنيسة القيامة سوف يرسل حملتين برية وبحرية للإسكندرية، فغضب الملك الصالح وأرسل بيبرس وأيبك والجيش المملوكي والفداوية أولاد إسماعيل لإحضار ملك القسطنطينية، ويتعرض بيبرس وجنوده لمخاطر البحر ومؤامرات أيبك والقاضي المزيف لكنه ينجو بفضل دعوات الصالح وكرامات الأولياء الصالحين ثم يتقاتل مع ملك أنطاكية الفرتماكوس ويحضره أسيرًا مع ميخائيل حاكم القسطنطينية إلى الصالح نجم الدين أيوب.

ويقوم الراين حنا ملك جنوة بإرسال قراصنته للإغارة على شاطئ الإسكندرية ويستولى على بضائع التجار، ويسافر بيبرس للتحقق من الأمر، وهناك يجد القاضي جوان المزيف وأتباعه فيتم وضع بيبرس في صندوق وإرساله إلى جنوة، وعندما علم الصالح نجم الدين ذلك جمع أولاد عمه الأكراد الأيوبية والأمراء المصريين وسافروا إلى الإسكندرية، وقرر الصالح ركوب البحر لجنوة وإنقاذ بيبرس من الأسر، وفى هذه الرحلة يواجه مخاطر ومهالك فيساعده القطب سيدى عبد الله المغاورى ويأمره باستدعاء أبا بكر البطرنى وأولاد إسماعيل فيستعد الصالح للسفر وبفضل بركات الأولياء الصالحين ويعود الصالح نجم الدين وبيبرس من جنوة.

وفى الإسكندرية يُصاب الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمرض، وصار يرتعد ويشكو من الألم ومازال كذلك حتى وصل مصر فدخل من غير زينة وظل مريضًا في رعاية زوجته شجر الدر وطال به الحال وقبل وفاته صلى الجمعة في مسجد الحسين وأراد الجلوس في الديوان كالعادة ولكنه لم يقدر لشدة مرضه وكتب وصيته بتوليه بيبرس حكم مصر بعد وفاته.

وأرسل الأمراء إلى عيسى توران شاه ابن الصالح نجم الدين ليخبروه بوفاة ابيه وانه أحق بالمُلك وعلى الفور حضر توران شاه وبايعه الأمراء، ولكنه لم يكن مثل والده على قدر من التقوى والورع بل كان يشرب الخمر ولا يعلم من أمور السياسة والحكم شيء، وعندئذ جاءت الأخبار من بوصول حملة عسكرية فرنجية مكونة من أربع ملوك فجهز بيبرس الجيش واستعد للسفر إلى دمياط أما جوان فقسم جيشه إلى أربع فرق ؛ فرقة تتجه الى المنصورة والثانية الى دمياط والثالثة إلى فارسكور والرابعة إلى البركون نجدة لكل من طلبها وفى اليوم التالي دارت المعركة واستمرت عدة أيام فقام بيبرس بالالتفاف حول جيش العدو ومات منهم الكثير وهرب الباقون وتبعهم حتى المنصورة ووقع القتل والنهب وانهزم الكفار في البر والبحر، ثم هربوا إلى فارسكور واقتتلوا مرة أخرى حتى قتل الملوك الأربعة وانتهت المعركة بانتصار الجيش المصري.

ويموت تورانشاه مقتولاً نتيجة وقوعه من التخبوش سكيرًا، ويتم اختيار ابنه الخليل فيرى في منامه جده الصالح نجم الدين ينبئه بأنه سيموت مقتولاً وبالفعل يقوم الأمير أيبك بقتله بالسم، ثم يتولى ابنه الصالح الصغير ويختار بيبرس وصيًا على العرش ومعه شجر الدر، ولكن الخليفة يرفض توليتها الحكم فتتزوج من أيبك ولكنه ظل حاقدًا على بيبرس، فيتهم شجرة الدر وبيبرس بوجود علاقة آثمة بينهما، فانتابتها نوبة عصبية حادة، ولما نامت جاءها الصالح أيوب في الحلم مرة أخرى وأمرها بقتل أيبك بالسيف. فلما استيقظت أحضرت السيف وضربته به فراح يصرخ مستنجدًا بابنه أحمد، ولكن عندما وصل أحمد إلى الغرفة كان أيبك قد فارق الحياة، فهجم على شجرة الدر ولكنها أفلتت منه وظل يطاردها إلى أن سقط بها سور سطح القلعة فهوت وماتت. ثم أتى الوزير شاهين والحراس وقبضوا على أحمد وألقوا به في السجن. ويعود بيبرس إلى مصر فيتولى حكم مصر ويحارب الصليبيين ويهزمهم.

ثالثًا: أهم القضايا في السيرة ودلالاتها التاريخية

١/٣-اسمه ونسبه ونشأته وتوليه الحكم

تذكر لنا السيرة بأن الكامل الأيوبي تولى الحكم مباشرة بعد وفاة أبيه صلاح الدين وقد أنجب ولدا سماه نجم الدين أيوب وقد " نشأ وترعرع وقرأ القرآن وختمه وبعد ذلك طلب الأحكام

وعـرف الحـلال والحـرام وصـار فطينًـا وعارفًـا بأحكـام السياسـة والشريعة والرئاسة كتب له أبوه الكامل حجة بالسلطنة بعد وفاته"[١٤]، تزوج وصار لديه ولدًا فسماه الصالح وكناه بنجم الدين أيوب وقد أحبه أبوه محبة عظيمة فكتب له حجة السلطنة في يوم مولده وأمرهم أن يكتبوا له حجة لا يكون من بعده إلا ولده الصـالح نجـم الـدين أيـوب فأجـابوه أرباب الدولـة بالسـمع والطاعة..... وكان الملك الصالح قد زهد الدنيا ورغب في الآخرة وقرأ القرآن وعرف ما فيه من البيان وعرف الحلال والحرام فعبد الملك العلام وصار من عباد الله الصالحين وهو من صغر سنه عـلى الفـلاح واليقـين ولا يجـالس الدولـة ولا يحضـرهم في حكومة"[١٥]، ومن هنا نفهم أن الراوي الشعبي اختلط عليه الأمر فجعـل الصـالح نجـم الـدين حفيـد الكامـل الأيـوبي وأن توليـه السلطة كان أمراً ميسوراً سهلاً بوصية من أبيه وبأنه لم يكن يجيد الحكم والسياسة ولا يعلم من أمور السلطنة شيء فهو متعبد زاهد عن الدنيا والشهوات، والراوي هنا ليس دقيقًا في وصفه ؛ فهو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أبو الفتوح بـن السـلطان الملـك الكامـل ناصـر الـدين محمـد بـن السـلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الأيوبي سلطان الديار المصرية وأمه جارية سوداء تدعى ورد المنى[١٦] وقد ولد بالقاهرة عام ٦٠٣هـ ونشأ بها.

وقد واجه صعوبات ومصادمات مع أخيه وأعمامه وأبنائهم للوصـول للحكـم، فعنـدما بلـغ الثانيـة والعشـرون مـن عمـره استنابه أبوه على مصر ووصفه بالملك الصالح في شعبان ٦٢٥هـ حينما كان متوجهًا لحصار الناصر داود بالشام[١٧] وفى ذلك الوقت قام الصالح نجم الدين بشراء ألف مملوك واستغلت أم العادل زوجة أبيه تلك الفعلة وأوهمت للكامل الأيوبي أنه عازم على الاستيلاء على الحكم[١٨] وأنه أخذ المال من التجار ومن بيت المال وطلبت منه سرعة العودة وما أن وصل مصر حتى أمر بتنحية الصالح عن ولاية العهد[١٩] ومال إلى ابنه الأصغر في ولاية العهد في حين عين الصالح نجم الدين على بلاد سنجار وآمد وحصن كيفا[٢٠] وعندما توفى الكامل اتفق الأمراء على أن يتولى الصالح نجم الدين نائبًا في الشرق وديار بكر وأخيه الأصغر العادل سلطان الدولة الأيوبية والملك الجواد مظفر الدين يونس نائبًا بدمشق.[٢١]

أمـا قضـية توليـه حكـم الدولـة الأيوبيـة فكـان محفوفًـا بالصراعات والمؤامرات وتعرض للموت والخيانة والسجن في كل خطوة نحو الوصول للسلطة باعتبار أنه الأخ الأكبر وكان نائبًا عن أبيه في مصر فهو أحق بولاية العهد لولا وشاية زوجة أبيه لما تعرض للمهالك، ولذا من الأجدر أن نتعرف على ظروف توليه الحكم وكيف تغلب على أعداءه لندرك سويًا حجم المعاناة التي عاشها الصالح نجم الدين فجعلت منه بطلاً في نظر العامة.

وتبدأ الأحداث باستسلام الملك الجواد عن دمشق نظرًا لضعفه وعدم قدرته على حكم البلد ووافق الملك العادل أبو بكر على تنازله عن دمشق وقايض الصالح نجم الدين دمشق بسنجار وعانه وحصن كيفا في ٦٣٦هـ[٢٢] ولكن الملك الجواد شعر بالندم وأراد استرداد دمشق فاحتدم الصراع مع الصالح نجم الدين واستعان كلاهما بالمساعدة الخارجية ولكن تدخل ابن جرير فأصلح الأمر بينهما وعادا لما اتفقا عليه من قبل[٢٣]، ثم بدأ الصالح يستعد لانتزاع السلطة من أخيه الأصغر وسار على رأس قواته متوجها إلى مصر وفى طريقه دخل في صراع عسكري مع الملك الناصر داوود صاحب حماة أسفر عن استيلاء الصالح عليها فتوجه الناصر داوود إلى مصر لمساندة العادل[٢٤] وفى أثناء تلك الأحداث وصلت مجموعة من الأمراء المصريين يرغبون في خدمة الصالح نجم الدين ومساندته وصاروا يحثونه على التوجه لمصر فهم يرونه أكبر سنًا وأحسن سيرة وأعظم هيبة وأجدر بالحكم[٢٥].

وظهر على الساحة عمه الصالح إسماعيل حاكم بعلبك والذى أوهمه بالوقوف بجانبه لاستعادة حقه في حين أنه كان ينوى الاستيلاء على دمشق[٢٦] والصالح ينتظره في نابلس ولكنه ظل يماطل ويتقاعس عن دعمه وخرج من بعلبك وقد تهيأت له الظروف فخرج بجيشه مدعيًا سفره إلى نابلس لدعم الصالح نجم الدين في حين أنه اتجه مع أسد الدين شيركوه حاكم حمص نحو دمشق واستولى عليها في ٦٣٧هـ[٢٧] فوصلت الأخبار إلى الصالح نجم الدين في نابلس فاتجه إلى دمشق واستعان بعميه مجير الدين وتقى الدين ولكن سرعان ما خذلوه ووقفوا بجانبه عمه الصالح إسماعيل خوفا على أبنائهم المعتقلين في قلعة دمشق[٢٨]، أما الصالح نجم الدين فقد عاد إلى نابلس وتعرض لهجوم قبائل الغور والعشران واستولوا على بعض أثقاله واستولى هو على خيولهم بعد سفك الدماء بين الطرفين[٢٩]، وهكذا تخلى عنه بعض الأمراء الأيوبيين وتركه بعض الجند والعسكر لأنه أصبح بلا سند ولا ملجأ وأمره سيتلاشى قريبًا.

وزادت الأوضاع سوءًا وتفاقم الأمر خاصة عندما رحل الناصر داوود من مصر بغير رضا الملك العادل مغاضبًا له فوصل الكرك [٣٠] وعلم الناصر بوجود الصالح نجم الدين في نابلس فأرسل قواته ليلاً فاعتقلوه بالحيلة والخداع مُهانًا على " بغلة بغير مهماز ولا مقرعة وساروا به إلى الموتة غرب الكرك في ثلاثة

أيام ولم يأكل شيئًا... ثم ادخلوه حبس الكرك ووكلوا به مملوكًا فظًا غليظًا" [٣١] وظل في الاعتقال سبعة أشهر.

وأرسل الملك العادل إلى الناصر داوود يطلب منه إخراج أخيه الصالح من الحبس مقابل مبلغ كبير من المال فرفض طلبه[٣٢] وتدخل الخليفة العباسي وبعض ملوك بنى أيوب والعسكر لإطلاق سراح الصالح نجم الدين فامتنع عن ذلك ولكنه وبعد عدة مفاوضات وافق الناصر واشترط على الصالح أن يطلق سراحه في مقابل أن يأخذ دمشق وحمص وحماه والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف مصر ونصف الخزائن والخيل والثياب، فوافق الصالح تحت القهر والسيف[٣٣] ولم يكن أمام الملك العادل خيارًا إلا محاربة الناصر فاجتمع ملوك بنى أيوب من مصر ودمشق وخرج العادل من مصر متجها إلى بلبيس والصالح في غزة وبدا واضحًا أن موقف العادل أقوى من الصالح نجم الدين وخاصة بعد مساندة الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم للعادل وهنا أدركا الصالح نجم الدين والناصر داوود بخطورة الوضع وندم الناصر على إطلاق سراحه وأراد إعادة سجنه ومصالحة العادل ولكن أخيرا تحسنت الأحوال حيث اضطرب جيش العادل لسوء معاملته فقد كان مشغولاً باللهو واللعب وتفضيله جماعة لا يصلحون كما أعرض عن أكابر الدولة وعظمائهم فأدى إلى نفور الأمراء والأكابر منه وهنا اتفق الأمراء الأشرفية والمماليك الكاملية على القبض على العادل ومراسلة الصالح نجم الدين للمجيء إلى مصر فسار اليهم على الفور وتسلم أخيه العادل في قبضته[٣٤] ودخل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الجبل في ذي القعدة ٦٣٧هـ. وهكذا خضعت البلاد للصالح نجم الدين بعد صراع طويل مرير مع أبناء البيت الأيوبي مما يدل على تمتع الصالح نجم الدين بالصبر وقوة التحمل والشجاعة.

٣/٢-استخدام الصالح نجم الدين أيوب للمماليك

شكل المماليك في الجيش الأيوبي العنصر الأساسي فيه وشغلوا مساحة في السيرة الشعبية وكان لهم دور سياسي وعسكري مع الصالح نجم الدين ولكن كيف جاءوا الى مصر؟ تروى السيرة الظاهرية أن الملك الصالح شعر بالخطر بعد رؤيته لمنام يرى فيه الضباع تهاجمه وهو وحيدًا في صحراء قاحلة وفجأة يظهر أمامه خمسة وسبعون أسدًا يتقدمهم أسد أكبر حجمًا وقوة فتدور معركة بين الضباع والسباع الذين افترسوا الضباع وأبادوهم نهائيًا وعندما أفاق من نومه استدعى مفسري الأحلام فأخبروه أن الضباع هم أهل الكفر والضلال الذين يرغبون في الاستيلاء على بلاد المسلمين، أما السباع هم أهل الإسلام، فأمر على الفور بضرورة شراء عدد كبير من المماليك وحدد لتاجر الرقيق الصفات المطلوبة في المماليك وجنسياتهم وأختص أحدهم بصفات خاصة مميزة[٣٥] والذى يتبين لنا فيما بعد أنه الظاهر بيبرس فيتبناه الملك الصالح وزوجته فاطمة شجر الدر ليصبح ولدًا لهما ويكون للملك الصالح الفضل في وصول بيبرس إلى الحكم بعد وفاته.

وبهذا أعطى الراوي الشعبي مبررًا لوجود المماليك في مصر وربما يعود ذلك إلى كراهية الشعب المصري للمماليك واتضح ذلك جليًا في أحداث السيرة وفى الواقع التاريخي أيضًا ولذلك قام الشعب بالثورات ضدهم نتيجة لسوء المعاملة وتقسيم المجتمع إلى طبقة عليا هي المماليك أصحاب السلطة وطبقة العامة التي عانت كثيرًا من الفقر والعوز والحاجة نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الدولة، على أيه حال تكشف لنا المصادر التاريخية أن سبب اعتماد الملك الصالح نجم الدين أيوب على المماليك يرجع إلى أنه استاء من تصرفات الأكراد أثناء نيابته عن أبيه في مصر فعزل بعضهم وحل محلهم المماليك الأتراك تدعيما لحكم والده الذى لم يكن واثقا هو الأخر في الأكراد الأيوبية[٣٦] ثم بعد تولية السلطة اعتنى كثيرا بشراء المماليك الأتراك والتركمان والأرمن والجركس وغيرهم [٣٧] وسبب ذلك هو خوفه من اجتماع أمراء البيت الأيوبي ضده وانقلابهم وغدرهم به وكذلك خشيته من انقلاب الكاملية والاشرفية عليه[٣٨]، ومع مرور الوقت أثبت المماليك شجاعتهم وبراعتهم القتالية وسرعان ما شكلوا نواة عسكرية سياسية في الجيش ومنحهم الحرية دون الطوائف الأخرى فعاثوا فسادًا في القاهرة وضج الناس منهم نتيجة اعتدائهم على المال والنفس فقالوا:

الصالح المُرتضى أيوب أكثر من.... ترك بدولته يا شر مجلوب

لا آخذ الله أيوب بفعلته...فالناس كلهم في ضر أيوب [٣٩]

ولكننا نفهم أيضًا من رواية القاص الشعبي أن العامة كانوا مدركين الخطر الصليبي وبضرورة اتخاذ الاستعدادات اللازمة للتصدي له وحماية العالم الإسلامي ولذلك وجب على الملك الصالح شراء المماليك وتجهيز جيشه.

٣/٣-علاقة الصالح نجم الدين أيوب بالمغول

لقد ارتبط اسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام ومصر وبخاصة أثناء الحملة الصليبية السابعة وبما أن الراوي الشعبي رأى أن صلاح الدين دخل بغداد للدفاع عن الخلافة العباسية ضد الخطر المغولي فقد جعل الملك الصالح يتصدى للهجوم المغولي على الشام، ووفقًا لما ترويه السيرة فأنه قد حضر إلى الملك الصالح رسول من حلب الشام

ومعه خطاب من الباشا يقول فيه " إننا مقيمين يوم تاريخه وإذا بالغبار قد علا وتار وسد منافس الاقطار عن رجال مجربين وفوارس للحروب طالبين وهم كرة كاملة اثنين وثمانون ألف فارس مع الخان هلاوون بن منكتمر فأغلقنا الأبواب وأقمنا الحصارات ونطلب منك من يدركنا والسلام " فارسل على الفور جيشًا بقيادة بيبرس ثم سافر إليه بنفسه ليقضى عليهم ويدمرهم [٤٠] وهذا ما تخيله الراوي الشعبي لكن ما تؤكده المصادر التاريخية أن الصالح نجم الدين لم يتقابل مع المغول على الإطلاق، بل كان أبوه الكامل الأيوبي على علم بتحركاتهم قرب بغداد وفى شمال العراق ؛ فعندما استولى المغول على ديار بكر وسنجار وماردين وآمد والجزيرة والدولة الخوارزمية وعاثوا في البلاد فسادًا وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء[٤١] أرسل الخليفة العباسي للكامل الأيوبي والأشرف يطلب النجدة لصدهم عن بغداد وسار الكامل بجيشه مع ابنه الصالح نجم الدين وأخيه الأشرف موسى إلى دمشق واجتمع عنده عدة ملوك بنى أيوب استعدادًا لحرب المغول[٤٢] واستمرت المناوشات بين التتار والجيوش الإسلامية قريبًا من بغداد ولم تدخلها أو تغزو بلاد الشام ولم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة أن الصالح نجم الدين جاهد المغول سواء في بغداد أو بلاد الشام وسواء كان حاكما على الشرق أو سلطانا للدولة الأيوبية بل حارب الصليبيين في الشام ومصر . وهنا نتساءل لماذا آثر الراوي منذ بداية السيرة أن يجعل الصالح بطلاً يواجه المغول وليس أبيه الكامل؟ ونرجح أن سبب ذلك هو عدم رسوخ سيرة الكامل في أذهان المصريين وعدم اعتباره ملكا ذا شأن وقيمة وفى نفس الوقت جعلت السيرة الظاهر بيبرس هو قائد الجيش المملوكي والثابت تاريخيا أنه بالفعل من قاوم المغول منذ غزو بغداد حتى وفاته وأسلم على يده الكثير منهم وبما أن السيرة سميت باسمه فكان لابد أن يشارك الظاهر بيبرس في كل حدث وواقعة هامة فيها.

٤/٣-علاقة الصالح نجم الدين أيوب بالصليبيين

ورث الملك الصالح نجم الدين ميراثًا مثقلاً بالهموم والأخطار، فقد كان عليه حماية الدولة الأيوبية من الصراعات مع أعمامه وأبنائهم وكذلك الخطر الصليبي الكامن في بيت المقدس خاصة بعد أن اتفق ملوك البيت الأيوبي مع الصليبيين بتسليم جميع ما فتحه صلاح الدين لهم ثم تطور الاتفاق إلى تحالف بحيث يساعدونهم في التصدي للصالح نجم الدين مقابل جزء من مصر وبالفعل تسلم الصليبيون صفد وشقيف وصيدا وطبرية وفى عام ٦٤١هـ تسلموا عسقلان وبيت المقدس[٤٣]

عندئذ استدعى الملك الصالح الخوارزمية وخاض معركة الحربية عام ٦٤٢هـ\ ١٢٤٤م ضد الصليبيين وأحرز نصرًا ساحقًا واستعاد بيت المقدس وجميع الأراضي التي استولوا عليها بدون وجه حق[٤٤] وكذلك دوره في التصدي للحملة الصليبية السابعة ورغم ذلك إلا أن الراوي الشعبي لم يوضح الدور الجهادى للصالح نجم الدين بل نراه كثيرًا ما يذكر تصدى الظاهر بيبرس للفرنجة كملك جنوة والقسطنطينية وفرنجيل حاكم قلعة العريش ونسى أمر بيت المقدس.

على أية حال ففي السيرة نجد أن الحملة الصليبية السابعة ومعركة المنصورة وما تبعها من أحداث أخذت شكلاً مختلفًا. تبدأ المعركة بورود رسالة من صاحب دمياط إلى الملك عيسى توران شاه يستغيث فيها من نزول جيش صليبي جرار يقوده أربعة ملوك ومعهم جوان وسيف الروم عند دمياط، فقام توران شاه بإرسال أيبك إليهم بقواته للقضاء عليهم، ولكن أيبك عاد إليه مهزومًا قائلاً: "غلبنا الكفار بكثرتهم ونهبوا أموالنا ودوابنا، وحمدنا الله الذي كتب لنا السلامة والهرب من بين أيديهم ". فاستشار الملك عيسى توران شاه وزير أبيه" شاهين " فقال له شاهين ناصحًا: "إن أردت نصرًا مؤزرًا أيها الملك فعليك بالأمير بيبرس فقد كان أبوك يعتمد عليه بعد الله في قتال الأعداء". إلا أن بيبرس كان في السجن بسبب دين عليه، فأفرج عنه تورانشاه وأمر بكتابة حجة بأن بيبرس يتولى الملك من بعده. وسار بيبرس ومعه تورانشاه وعسكرا عند دمياط، ثم انهزم الصليبيين وفروا إلى المنصورة حيث قامت معركة كبيرة انتهت بهزيمتهم وفرارهم إلى فارسكور فتبعهم بيبرس وجنوده. وفي أثناء المعركة أمر تورانشاه ببناء برج خشبي ليتابع المعركة من فوقه، إلا أنه راح يشرب الخمر أما بيبرس يترك المعركة ويذهب إليه طالبًا منه التوقف عن شرب الخمر. إلا أن توران شاه وهو يبعد الكأس سقط من البرج ومات لساعته فعاد بيبرس إلى ميدان القتال وهزم الصليبيين.[٤٥]

هذا ما تخيله الوجدان الجمعي أما الواقع التاريخي فيؤكد أن استعادة بيت المقدس على يد الصالح نجم الدين أغضب أوربا فدعت إلى قيام حملة جديدة لاستعادة القدس سُمِّيَت بالحملة الصليبية السابعة[٤٦]، والتي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع، الذي أراد من خلالها أن يُؤمّن لفرنسا مواضع مهمة وجديدة في منطقة البحر المتوسط، أما مسألة تحرير بيت المقدس وإعادتها إليهم، فقد كانت ذريعة، لإخفاء مطامعهم الحقيقية التوسعية في منطقة الشرق الإسلامي. وفى أثناء تحرك الأسطول الصليبي من قبرص، كان الصالح نجم الدين

مُنشغلاً بحصار حمص في تلك الأثناء، فقد أمضى شتاء عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٨م) في حصارها، على أمل أن تفرغ قواته من الاستيلاء على حمص ومن ثَمَّ السيطرة على حلب[٤٧] ولكن الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني حذَّر الملك الصالح بقدوم الحملة الفرنسية وهدفها مصر، إذ أرسل للملك الصالح كتابًا جاء فيه: "إنه قد وصل في خلق كثير وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته فلم يرجع لقولي، فكن منه على حذر"[٤٨] ولذلك شرع في الاستعداد للتصدي لذلك العدوان إلا أن الملك الصالح مرض في هذه الفترة الحرجة، ولم تعدّ لديه القدرة على قيادة الجيش بنفسه، فأمر وزيره الأمير فخر الدين أن يتولى قيادة الجيش بدلاً منه، فغادر دمشق متوجهًا إلى الديار المصرية، ونزل الملك الصالح بأشموم اطناح[٤٩].

وكان الصالح أمر بتخزين مواد التموين وبكميات كبيرة، مع إدخال كميات ضخمة من الأسلحة والآلات التي يحتاجها المقاتلون في مدينة دمياط[٥٠] ثم بعث إلى الأمير حسام الدين نائبه في القاهرة، وأمره أن يُجهز الأسطول بالرجال والسلاح والعِدَّة. فاستجاب الأمير حسام الدين لأمر الملك الصالح، وباشر بتجهيزها، كما أمر بتجهيز قوة نظامية كبيرة قائدها فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، وأمره أن ينزل بالجيش على جزيرة دمياط في البر الغربي للمدينة للوقوف بوجه الصليبيين إذا قدموا ليمنع نزولهم إلى الشاطئ، فتحرك فخر الدين بجيشه نحو دمياط، فنزل بالجيزة وصار النيل بينه وبينها[٥١]، أما واجب الدفاع عن مدينة دمياط من الداخل، فقد أسنده إلى قوات من بني كنانة، وهم من القبائل العربية المعروفة بالشجاعة، وذلك من أجل المحافظة عليها والدفاع عنها[٥٢] وأصبحت الحرب وشيكة بين الطرفين بعد وصول الأسطول الصليبي في البر الغربي لدمياط، فاشتبك الجيش الأيوبي مع القوات الصليبية والتي فَتَكَت بعددٍ منهم لكن تفوق القوات الغازية بالعدد والعِدَّة، جعل ميزان القوة يميل لصالح الصليبيين، الذين تمكنوا من النزول إلى البر، وهو ما دفع بالأمير فخر الدين بالانسحاب إلى الجانب الشرقي للنيل وترك دمياط والجسر الذى كان يربط بين الجانبين وانسحب إلى أشمون طناح[٥٣].

واستولى الرعب على أهل دمياط، فقرروا الهرب و إشعال النار في الأسواق والمنازل ودار السلاح، كما هرب المقاتلين من بني كنانة، المكلفين بواجب الدفاع عن دمياط " فَوَلَّوا الأدبار وتركوا أبوابها مُفَتَّحة"، وهكذا هرب جميع من في المدينة من النساء والأطفال، وكذلك الرجال، المقاتلين منهم والعامَّةَ واشتد غضب الملك الصالح وذلك لأن دمياط كانت مُحَصَّنَة ومشحونة بالمقاتلين والأسلحة والذخائر والمؤن، وهكذا علم الصليبيون بهزيمة المسلمين فعبروا إلى البر الشرقي ودخلوا دمياط دون قتال[٥٤]، أما الملك الصالح الذي كان يعاني من مرضٍ شديد فأمر بالانتقال إلى المنصورة، ليتحصن فيها لمنع الغزاة من التقدم إلى القاهرة، واتخذ المنصورة مقرًا لأعماله العسكرية و أمر الجند في تجديد الحصون والمباني و نصبوا الأسواق، و أصلحوا السور الذي على النيل، وتقدمت الشواني المصرية بالرجال والأسلحة وكذلك جاءت أعداد كبيرة من المتطوعين[٥٥] وهكذا استعاد الجيش الأيوبي قوته فأخذت القوات المصرية تشن غارات ومناوشات على الصليبيين[٥٦]، ثم قرر لويس المسير نحو القاهرة للاستيلاء عليها[٥٧] ولم يكد يبدأ الصليبيون زحفهم من مدينة دمياط في اتجاه مدينة القاهرة حتى توفى الصالح نجم الدين بالمنصورة في يوم الاثنين ليلة النصف من شعبان (٦٤٧هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩م)[٥٨] وكانت مُدة حربه مع الصليبيين أربعة عشر شهرًا. فدفن في قلعة الروضة تحت قبة بنيت له بجانب المدرسة الصالحية[٥٩] وتمكنت زوجته شجر الدر من إخفاء خبر وفاته وأخذت البيعة لابنه تورانشاه وهكذا حافظت على الجيش من الفوضى والاضطراب وخاض المعركة التي انتهت بهزيمة الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع وهكذا لم يشاهد الملك الصالح ثمرة جهاده وتصديه للخطر الصليبي.

٣/٥-الصالح نجم الدين والتصوف

من الخصائص الأساسية في السيرة الشعبية بصفة عامة، الاهتمام بالعاطفة الدينية والروحية لأشخاصها وخاصة المحببين والمقربين للعامة ولذا شغل الفكر الصوفي مساحات رحبة فيها وكذلك الاعتقاد في أولياء الله الصالحين؛ فقد جعلته السيرة وليًا من أولياء الله الصالحين الزاهد في الدنيا والرافض للشهوات والملذات وصاحب كرامات ويظهر للعديد من الشخصيات الأخرى في المنام ولديه القدرة على التنبؤ بالغيب ومعرفة ما يحدث في أماكن بعيدة عنه كما يعرف أسماء أشخاص لم يرها من قبل وقطع المسافات الطويلة في لمح البصر ومعاقبة الله لمن يهين الولي أو يعتدى عليه والقدرة على تحويل شكله وتغيير هيئته وكذلك القدرة على التواجد في أكثر من مكان في نفس الوقت.

وقد وصفت السيرة الصالح نجم الدين قبل توليه الحكم بأنه "زهد في الدنيا ورغب في الآخرة، وقرأ القرآن وعرف الحلال والحرام، فعبد الملك العلام وصار من عباد الله الصالحين، وهو من صغر سنه على الفلاح واليقين، ولا يجالس أهل الدولة ولا

يحاضرهم في حكومة، فسموه الأكراد الصالح نجم الدين أيوب ولى اللـه المجـذوب.... وقـد اشـترط عـلى نفسـه ألا يأكـل مـن السلطنة ولا يأخـذ شـيئًا مـن أمـوال مملكتـه ولا يأكـل إلا مـن كسب يده "[٦٠] وذلك ما أكده المقريزي عندما تولى الصالح نجم الدين الحكم فقام بـ "كشف بيت المال والخزانة السلطانية فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم، فطلب القضاة والأمراء الذين قبضوا على العادل وسألهم عن سبب قبضهم عليه فأجابوا: "لأنه كان سفيهًا"، فسألهم: "يا قضاة السفيه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين؟" فلما أجابوا بالنفي قال لهم: "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه"، فخرجوا وعادوا بمبلغ كبير من المال بلغ سبعمائة ألف وخمسة وثمانين ألف دينار وألفى ألف وثلاثمائة ألف درهم[٦١] وفى خضم أحـداث المعركـة ضـد الصـليبيين في دميـاط والسـلطان يـزداد مرضًا وألمًا فأحس بدنو أجله، نودي في مصر: "من كان له على السلطان أو عنده له شيء، فليحضر ليأخذ حقه، فطلع الناس وأخذوا ما كان لهم".[٦٢]

وتكتمـل صـورة التقـوى والـورع والزهـد في الـدنيا ومفاتنهـا فنسمع الصالح نجم الدين يقول عن نفسه على لسان الراوي: "أنا رجل أضفر الخوص وأعمل المقاطف ولا أعرف السلطنة ولا أعرف أحكامها"[٦٣]،ويستمر الراوي في تجميل صورة نجم الدين أمـام شـعبه مؤكـدًا اتصـاله بآل البيـت ورغبتـه في التـبرك بهـم ليصـطبغ بصـبغة صـوفية، فحينما يختـار الصـالح وزيـرًا لـه يجعـل توليه المنصب في مسجد الحسين بعد صلاة الجمعة وليس في قصره، ثم أكلوا جميعًا الدقة والقراقيش[٦٤]، وعندما أراد نجم الـدين الـزواج مـن شـجر الـدر ذهـب ومعـه السـادات الأشراف فصلوا جميعًا في جامع سيدنا الحسين ثم عاد إلى قصره لإتمام الزفاف[٦٥]

ولم تغفل السيرة الشعبية الصفة الأساسية في الصوفي، وهى الكرامات والتنبؤات الذى يتميز بها الولي، وقد تكررت كثيرًا في السـيرة، فجعلـت الصـالح نجـم الـدين أيـوب صـاحب كرامـات وأعمـال الخارقـة للطبيعـة؛ فيقـول الـراوي: "إن شـجر الـدر ذهبـت لمقابلته، وقد أشار عليه وزيره أن يعرض عليها الزواج، ولكنها رفضت في أول الأمر، ثم وافقت بعد أن رأت فى المنام الصالح نجم الدين يهدد ويتوعد فقبلت الزواج منه[٦٦]، وهكذا بفضل كراماته لأنه ولى الله المجذوب تم الزواج. ومن كرامات الصوفي الصـالح نجـم الـدين ولى اللـه المجـذوب، قدرتـه عـلى قطـع المسافات الطويلة بسرعة البرق، فعندما كانت الملكة شجر الدر في رحلة الحج وفى أثناء زيارتها للمدينة المنورة، وقفت خارج الحجـرة النبويـة الشـريف فـرأت شخصًـا باكيًـا وفى غايـة الخضـوع والاحتشام فصار ينشد أبياتًا شعرية في مدح الرسول وبعد أن أنتهـى فـإذا بـه "الملـك الصـالح أيـوب ولى اللـه المجـذوب..... فغـاب عـن الأبصـار فلـم يجـدوا لـه خـبرًا ولا وقعـوا لـه عـلى أثـر، فتعجب الوزير منه غايه العجب وثبتت عنده كرامات الصالح وزاد حب الملك في قلب السيدة فاطمة "شجر الدر".[٦٧]

ومن كرامات الملك الصالح أنه كان يعرف اسم من يقابله لأول مـرة، فعنـدما كـان الخليفـة والصـالح والأكـراد يتقلـدون السـيوف والـتروس الخشـبية في طـريقهم إلى مسـجد الحسـين وهـم يهللـون ويكـبرون مثـل الـدراويش، قـابلوا رجـالاً بملابـس عسكرية " فلما نظر مقدم القوم إلى الخليفة والأكراد..... مد يده إلى الملك الصالح وقال خذ هذا وادعى لي فقال الصالح يا هذا أنا ادعى لك من غير شيء..... فتعجب غاية الإعجاب وكيف أنه ناداه باسمه ولم ينظره إلا في هذه الساعة " [٦٨] وكان الرجل اسمه شاهين الذي عينه الملك الصالح وزيرًا له.

كما كان للصالح كرامات أخرى كانت سببًا في هلاك جنود أيبك وحماية مصر من خطره، فيقول الراوي: إن الأمير عز الدين أيبـك سار إلى مصر للاستيلاء عليها ولكن أصابه مرض شديد وجنوده ضلوا الطريق وهم تائهون في الصحاري وطلبوا منه العـودة إلى ديارهـم وهنـا قـال لهـم أيبـك: "إن هـذا الرجـل مـن أولياء الله الصالحين ومن المتوكلين على رب العالمين وانى من يوم عزمت أن أغزوه وأنا مريض بالمرض الشديد وقد صحت عندي هذه الكرامات الظاهرة".[٦٩] وكأن الراوي هنا يؤكد أن الملك الصالح الفقير إلى الله والمتوكل عليه، ذو التقوى والورع والعدل، كـل هـذا جعلـه في حمايـة رب العـالمين فجعـل أيبـك يرتمى تحت قدميه ويقبل الأرض بين يديه ويطلب منه الأمان والعفو، فعفا الصالح عنه وجعله من جملة خدمه.

ومـن أهـم معجـزات الصـوفي كما تراهـا الطـرق الصـوفية، التنبؤ بالغيب عمومًا والعلم بما يحدث في أماكن بعيدة عنه كأنـه يـرى الأحـداث والأشـخاص في البلـورة السـحرية أو كأنـه مكشوف عنه الحجاب كما يقول العامة، فتقدم لنا السيرة قصة أخرى تفسر هذه الميزة، فالصالح نجم الدين أيوب قبل وفاته كتب وصية بتولية الظاهر بيبرس حاكمًا على البلاد من بعده فيقول الراوي: "وفى يوم على فراشه قال يا إخواني ديرونى على القبلة فأداروه وتلوا القرآن الكريم ويبكون عليه بالدمع السجام هذا وقد تقدم إليه بيبرس وقرأ سورة يس ففتح عينيه وقال يا ولدى لك الملك من بعدى وأنا أسال الله الكريم رب العرش العظيم كل من تسلطن قبلك لا يموت إلا قتيلاً فتقبل الله

دعاءه"[٧٠] وهذا ما تحقق تاريخيًا بالفعل؛ فعندما توفى الملك الصالح وجاء ابنه تورانشاه ليتولى السلطة فإنه أساء معاملة الأمراء المماليك الذين ساندوه ودافعوا عن الدولة كما اتصف بفساد أخلاقه الشخصية وبأنه عديم الخبرة وجاهل بشئون الحكم والسياسة وسيء التدبير كثير الشراب[٧١]، كما وصفه ابن الجوزي بأنه "سيء التدبير ذو هوج وخفة" كما أحضر معه من ديار بكر مجموعة من الندماء خصهم بالإقطاعيات دون المماليك المصريين، وأخذ يعد للخلاص من المماليك بعد ارتفاع شأنهم عقب النصر على الصليبيين، ونتيجة لسكره وطيشه فقد كان يضرب الشموع بالسيف ويسمى كل منهم باسم أحد الأمراء ومن هنا قرر المماليك الخلاص منه قبل أن يسبقهم كما أساء لشجر الدر التي أدارت البلاد حتى عاد وكانت نهايته في برج خشبي حين هجم عليه المماليك ففر إليه مجروحا فأشعلوا فيه النار فسقط في الماء ليموت جريحًا حريقًا غريقًا[٧٢]، ثم تسلطنت شجر الدر ونظرًا لكونها امرأة فلم يرغب الخليفة والعامة في توليها الحكم لذلك اضطرت للزواج من القائد المملوكي عز الدين أيبك وسرعان ما انقلبت عليه وقتلته فقامت زوجته بقتلها[٧٣]، ولم يكن أمام المماليك سوى تولية المنصور على ابنه واختاروا المظفر قطز وصيًا عليه نظرًا لصغر سنه ولكن الخطر المغولي صار وشيكًا وكان لابد من وجود سلطان فعلى فتمت الموافقة على تولية قطز السلطة وبعد عودته من موقعة عين جالوت تم اغتياله على يد بيبرس وزملائه ووافق الجميع على اختيار الظاهر بيبرس سلطانًا على الدولة المملوكية [٧٤] وأرسى قواعد دولة جديدة قامت على سفك الدماء وأصبح المؤسس الحقيقي للحكم المملوكي.

ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنتعرف على الملامح العامة لشخصية الصالح نجم الدين أيوب كما رأها وتحدث عنها مؤرخو عصره، فقدموا لنا دلالات تاريخية عن ولى الله المجذوب، ربما نفهم ما فعله الراوي وكيف يُشكل الوجدان الشعبي صورة الأبطال والأحداث، فتذكر المصادر التاريخية عن شخصية الصالح نجم الدين أنه " كان ملكًا شجاعًا حازمًا مهيبًا لشدة سطوته وفخامة ناموسه، مع عزة النفس وعلو الهمة، وكثرة الحياء، والعفة وطهارة الذيل، وصيانة اللسان من الفحش في القول، والإعراض عن الهزء، وشدة الوقار ولزوم الصمت.... وهو في غاية الوقار ولا يرفع بصره إلى من يحادثه، حياء منه، ولم يسمع منه قط في حق من خدمه لفظة فحش... ولا عرف من النكاح سوى زوجته وجواريه... " [٧٥].

أما عن أحوال المملكة في فترة حكمه فيقول المقريزي: "وكانت البلاد في أيامه مطمئنة والطرق سابلة..... وكان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات من غير أن يخالطهم، ولم يخالط غيرهم لمحبته في العزلة ورغبته في الانفراد، وملازمته للصمت، ومداومته على الوقار والسكون".[٧٦]

وهكذا كانت الصورة المحببة شعبيًا للسلطان للصالح نجم الدين أيوب والتي رسمتها السيرة الشعبية، فلقد رأت العامة في الملك الصالح، ملكًا عادلاً نقيًا يكره أن يأكل من الأموال العامة كما يكره الظلم والجور ولذلك صوره الخيال الشعبي في صورة الزاهد صاحب الكرامات وأفعال ما وراء الطبيعة والمعجزات، كما أنه لم يأكل إلا من عمله بصناعة المقاطف الخوص ويأكل من طعام العامة، الدقة والقراقيش. وصورته في التاريخ ذلك البطل المجاهد ضد العدوان الصليبي والحامي للعالم الإسلامي والذي مات في ريعان شبابه بعد صراع مرير طويل مع المرض ثم كان موته في ساحة المعركة. فهل يمكن القول بأن الخيال الشعبي أعجب بتلك الشخصية وأنتجها في قالب متميز فجعله ولى من الأولياء الصالحين ليحظى بقبول شعبي واسع؟ وبالتالي فهو معصوم من الخطأ، حيث إن الروى تغاضى عن بعض تجاوزات ومساوئ الحكومة والسلطان وركز فقط على أخلاقه الطيبة وجهوده المضنية في حماية الدولة الأيوبية التي غدت في تلك الفترة ممزقة وضعيفة يتصارع رجالها ويختلفون في الأهداف والمصالح بعكس الصورة التي كانت عليها الدولة في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي وحد الجهات معًا تحت لواء الإسلام والجهاد.

أما المصادر التاريخية ذكرت بأنه" قتل أخيه الملك العادل واستولى على أمواله وعلى أموال أمه وكذلك جماعة من الأشرفية وغرق بعضهم في البحر واعتقل جميع الأمراء المصريين وأخذ أموالهم ومات في حبسه ما يزيد عن خمسة آلاف نفس، وإذا حبس أحد نسيه وكان لا يجرؤ أحد أن يشفع له عنده وكان يحلف أنه ما قتل أحد بغير حق وهذه مكابرة."[٧٧]

في حين رآه ابن تغرى بردى بصورة أكثر مثالية فيقول: "هو عندي أعظم ملوك بنى أيوب وأجلهم وأحسنهم رأيًا وتدبيرًا ومهابة وشجاعة وسؤدًا بعد الناصر صلاح الدين ولو بم يكن من محاسنه إلا تجلده على مقابله العدو بالمنصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة وموته على الجهاد والدفاع عن المسلمين."[٧٨]

٦/٣-وفاة الصالح نجم الدين أيوب

ونستمع للراوي عندما يقص علينا نبأ مرض ووفاة الملك الصالح نجم الدين أثناء عودته من جنوة وبعد إنقاذ بيبرس من الخطف، أصيب الصالح بالفجة أي الخضة وتمكنت منه فصار يرتعد ويشكو الآلام حتى وصل مصر ولازم الفراش عند شجر الدر زوجته وطال مرضه واشتد عليه فنصحه الطبيب بالسفر الى المنصورة ذات الهواء العليل والرياح تهب عليها من الجهات الأربعة فتحسنت حالته كثيرا ولكن المرض تمكن منه عندما عاد الى مصر وبعد أن زار مقام الإمام الشافعي ثم صلى الجمعة في الحسين، وطلب من بيبرس أن يبنى له مسجد وقبة فتم له ذلك وتوفاه الله وانزعج العالم لموته وحزنوا عليه كثيرًا[٧٩] هكذا توفى ودُفن الصالح نجم الدين والحقيقة التاريخية تطالعنا باختلاف الروايات حول أسباب وفاته؛ فذكر البعض أنه منذ عودته من دمشق تعرض لقرحه في مأبضه أي في باطن الركبة منعته من ركوب فرسه وحصل منها ناصور وقرحة في الصدر ولذلك كان محمولاً على محفة[٨٠]، أما الذهبي ذكر أن الصالح نجم الدين وقعت له الأكلة في فخده منذ سفره إلى دمشق[٨١]، ويحدثنا ابن واصل بأنه كان مريضًا بالناصور والسل معًا "وما كان يشعر بالسل وإنما كان يظن أن عجزه وضعفه عن الحركة بسبب الجرح"[٨٢]، وما لبث أن مات السلطان في قصره بالمنصورة أثناء تصديه للحملة الصليبية السابعة فحُمل جسده في مركب إلى قلعة بالروضة ودفن في قبر خاص بُنى بجوار مدرسته بالقاهرة الذى أنشأته زوجته شجر الدر.[٨٣]

رابعًا: شخصيات وأحداث أغفلتها السيرة الظاهرية

٤/١-والده السلطان الكامل الأيوبي

ذكرت السيرة الملك الكامل مرة واحدة بأنه بعد وفاة أبيه صلاح الدين الأيوبي "جلس على كرسي أبيه وقد أطاعه جميع أهله وذويه وحكم بين الناس بالإنصاف والعدل وترك الجور والإسراف وعدل في الرعية سنة كاملة وبعد ذلك طلب الخراج من البلاد فأطاعته سائر العباد وحملوا إليه الأموال والجواهر الثقال..... وأنجب ذكرًا سماه نجم الدين."[٨٤] والحقيقة التاريخية تذكر أن الملك الكامل هو ابن العادل أخو صلاح الدين وليس ابنه ولكننا في السيرة الشعبية لا نلوم على الراوي في خلط الأسماء وأنسابها لأنه يهتم فقط بالأحداث ومدلولها أما الأسماء فيستخدمها لكي يصل إلى نقطة أخرى مهمة في روايته. ربما يعود هذا إلى عدم اعتراف الوجدان الشعبي بأبناء صلاح الدين لأنهم تاريخيًا لم يكن لديهم قدرات وإمكانيات أبيهم؛ نتيجة الصراعات فيما بينهم فأصبحوا ظلالاً شاحبة ولم يقدموا الكثير للشعب ولذا فلم يعرهم المصريون الاهتمام، ورأوهم غير جديرين بالبنوة لصلاح الدين البطل الصوفي صاحب الشرعية كما تخيلوه، ومن ثم تجاوز الخيال الشعبي أبناء صلاح الدين، وجعلوا أخاه العادل وابنه الكامل ولدين له، وهذا يدل على ذكاء الوجدان الشعبي الذي لا يخلد إلا من قدم له إنجازات حقيقية، فالعادل هو من وحد مصر والشام بعد طول خلاف بين ورثة صلاح الدين.

أما الكامل الأيوبي فيقول عنه ابن واصل، أنه كان ملكًا مُهابًا حازمًا وحسن التدبير ورجلاً عفيفًا وينفق الأموال على الفقراء والمساكين وخصص لهم رواتب شهرية وكان محبًا للعلماء ومجالستهم وسماع مناظراتهم ومغرمًا بسماع الأحاديث النبوية وغيرها من الصفات والأخلاقيات الرشيدة وشعر الناس في أيامه بالأمان على أنفسهم وأموالهم [٨٥]، كما استطاع التصدي للحملة الصليبية الخامسة[٨٦]، واستقرار أحوال مصر في عصره، وحسبنا دليلاً على ذلك ما ذكره مؤرخ معاصر بأنه: "ملك مصر عشرين سنة وكانت الطرقات في زمانه آمنة، ذلك أنه رتب على الطرقات خفراء لحفظ التجار والمترددين، فكانوا يعبرون الرمال الصعبة والبراري الموحشة فلا يروعهم أحد".[٨٧]

ورغم ذلك تجاهلته السيرة الشعبية ويرجع سبب تجاهل السيرة للكامل الأيوبي إلى الحقيقة التاريخية القائلة بأنه سلم بيت المقدس للملك فردريك الثاني دون قتال أثناء أحداث الحملة الصليبية السادسة على دمياط عام ١٢٢٩م في مقابل رحيل الصليبيين عن دمياط، مما أغضب الشعب المصري بل والعالم الإسلامي الذي رأى أنها كارثة حقيقية وليست هدنة وأنه ضحى بالمصلحة الإسلامية العامة في سبيل مكاسب إقليمية كان من الممكن تحقيقها دون هذا التخاذل والخزي والعار الذي لحق بالمسلمين بسببه تصرفه البشع. وهنا يصف لنا المؤرخ ابن واصل ذلك الوضع البائس بقوله " وللكامل هفوة جرت منه، عفا الله عنه لأنه سلم بيت المقدس إلى الفرنج اختيارًا، نعوذ بالله من سخط الله ومن موالاة أعداء الله".[٨٨]

ويستكمل المقريزي صورة الفاجعة ويرسم لنا صورة حيوية ونابضة ومعبرة لرد فعل شعبي تجاه السلطان الكامل الأيوبي موضحًا أن تلك الهدنة كان مدتها عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يومًا، ثم يقول: "فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل،

وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا في غير أوقات الصلاة، فعز ذلك عليه، وأمر بأخذ ما كان معهم في الستور والقناديل والفضة والآلات وزجرهم، وقيل لهم: امضوا حيث شئتم فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار".[٨٩]

وهذا يعنى أن الشعب المصري لم يغفر للملك الكامل ذلك الخطأ الفادح سواء في المصدر التاريخي أو في السيرة الشعبية التي تغاضت عنه لأنه بتسليم القدس للعدو فإنه تنازل بسهولة عن أهم رموزه الدينية والحضارية، فبيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين تعد جزءًا هامًا من الهوية الإسلامية للعالم الإسلامي ولذ نجد الراوي الشعبي يذكره عابرًا ليدين خيانته للإسلام والمسلمين وبالتالي فالسيرة عبرت بدقة ووضوح عن ضرورة الدفاع عن مدينة مقدسة وأكدت على أن حماية بيت المقدس والعناية به ركيزة من ركائز الهوية الإسلامية.

٢/٤-علاقة الصالح نجم الدين الخوارزمية

رغم أن الخوارزمية كانت لهم علاقات قوية بالصالح نجم الدين لفترة طويلة وكان لهم دور بارز ومؤثر في الدولة الأيوبية وفى حياة الصالح نجم الدين ذاته إلا أن السيرة أغفلت ذكرهم تماما في حين استخدم الراوي الشعبي لفظ الفداوية ابناء إسماعيل كعنصر مساند لبيبرس عندما كان يقوم بحملاته على بلاد الشام أو في حالة تعرضه لمصاعب ومشاكل فدائما ما كان يستعين بهم بأمر من الملك الصالح نجم الدين أيوب، فهل هذا نوع من الخلط بين فرقة الاسماعيلية الى قضى عليها بيبرس على اعتبار ان السيرة الشعبية تحمل اسمه وبين الخوارزمية التي ساندت نجم الدين في حكمه؟ أم أن الوجدان الشعبي لم يعرف من هم الخوارزمية وخاصة أنهم اختفوا تمام في نهاية عهد الصالح نجم الدين الذي قضى عليهم ولم يبق لهم أثر في الشام وفئة قليلة منهم انضموا لجيشه؟

والواقع التاريخي يثبت لنا أن الصالح نجم الدين قد استعان بالخوارزمية منذ أن كان حاكمًا على بلاد الشرق نيابة عن أبيه الكامل عام (٦٣٤هـ/١٢٣٧م) واستطاع أن يحصل منه على تصريح بانضمامهم إلى عسكره[٩٠] وبعد أن تعرضوا منذ عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) لهجمات متكررة من المغول وأبناء البيت الأيوبي الذين كونوا حلفًا معاديًا ضدهم ومع زيادة المصاعب تفككت دولتهم نهائيًا عام (٦٢٨هـ/١٢٣١م) وصاروا يعملون كجنود مرتزقة[٩١]، وفى العام التالي توفى السلطان الكامل فتمردت الخوارزمية على الصالح نجم الدين، وخرجوا عن طاعته، وحاولوا القبض عليه إلا أنه هرب وتحكموا في البلاد الجزرية [٩٢] وفى نفس الوقت تعرض الصالح لحصار صاحب الموصل وحاول التفاوض معه ولكنه رفض فاضطر إلى استمالة الخوارزمية ووعدهم وأطمعهم في بعض الأقطاعات والأراضي فعادوا إليه والتزموا بالطاعة والولاء[٩٣]، كما ساندوا ابنه تورانشاه حينما حاصره سلاجقة الروم في آمد عام (٦٣٥هـ/١٢٣٨م)[٩٤] ثم استعان بهم الملك الصالح نجم الدين في إنقاذ القدس من أيدى الصليبيين في (٦٤٢هـ/١٢٤٥م) فدخلوها وعاثوا فيها فسادًا[٩٥] وفى أثناء ذلك تحالف الصالح إسماعيل والناصر داوود والصليبيين على غزو مصر فجهز الصالح جيشه من مماليكه ومن الخوارزمية وعلى مقربة من غزة ألتقى جيش الصالح وجيش التحالف الثلاثي في معركة أسفرت عن انتصار ساحق للعسكر الصالحي ثم نجحت القوات الخوارزمية في السيطرة على الساحل والقدس والخليل وبيت جبرين وحصار دمشق ستة أشهر حتى انتهى بالاتفاق على تنازل الصالح إسماعيل عن دمشق للصالح نجم الدين.[٩٦]

كانت الخوارزمية تطمع في غنائم ومكاسب اخرى فى دمشق ولكن الصالح منعهم من دخولها فاعلنوا التمرد والعصيان عليه مرة أخرى[٩٧] وانضموا للصالح إسماعيل والناصر داوود للاستيلاء على دمشق وحاصروها وقطعوا عنها الامدادات فاشتد الغلاء ومات الكثير من الناس وانتشرت الاوبئة والامراض وحينذاك استعان الصالح نجم الدين بحاكم حمص وحلب وحرضهم ضد الخوارزمية المفسدين الذين خربوا البلاد كما انضم اليه الأعراب والتركمان وفى عام (٦٤٤هـ/١٢٤٧م) وعند بحيرة حمص وقعت معركة ضارية بين الطرفين انتهت بهزيمة منكرة للخوارزمية ونُهبت أموالهم وتشتت شملهم في مصر والشام ولم يكن لهم دور سياسي أو عسكري بعد ذلك.[٩٨]

خَاتِمَةٌ

تبين لنا بعد عرض ما جاء في السيرة الظاهرية عن الصالح نجم الدين أيوب، أن الرؤية الشعبية لحياة الصالح رسمت له صورة تكاد تكون منسجمة ومتفقة مع المصادر التاريخية، فجعلت الصالح نجم الدين رجلاً صوفيًا زاهدًا في الدنيا، كما كان منشغلاً بحماية العالم الإسلامي من الخطر الصليبي ويبدو أن ذلك شغل بال الراوي الشعبي أيضًا فصار يشحذ سنان قلمه في مدحه ووصفه بصاحب الكرامات واعتبره ولى من أولياء الله الصالحين وجعله البطل المغوار في مواجهة الصليبيين والمغول، وعلى العكس تمامًا تجاهلت السيرة الشعبية ذكر أبيه السلطان العادل الذى تنازل عن بيت المقدس للصليبيين فكان ذلك بمثابة الطامة الكبرى على العالم الإسلامي، وبما أن الرواية الشعبية تجمع في ثناياها شخصيات بطولية فأنكرت سيرة العادل الأيوبي واعتبره العامة خائنًا، كما يبدو أن الراوي الشعبي اختلط عليه الأمر فلم يفرق بين الخوارزمية والذى قضى عليهم الصالح نجم الدين وبين الفداوية الإسماعيلية الذى قضى عليهم بيبرس وخاصةً أن السيرة اعتبرت بيبرس ابن الصالح نجم الدين. ومن هنا يرى الباحث أنه يمكن اعتبار الأدب بصفة عامة مصدرًا مساعدًا ومكملاً للمادة التاريخية مع أخذ في الاعتبار دقة التمحيص والمقارنة بينهما واعتماد الأدب الشعبي على الخيال والخرافات وتحريف بعض الأحداث ليتماشى مع الوجدان الإنساني.

الاحالات المرجعية:

(١) قاسم عبده قاسم، **القراءة الشعبية للتاريخ**، مجلة العربي، العدد (٤٩٣)، الكويت، ديسمبر ١٩٩٩م.
(٢) خطرى عرابى، **البناء الأسطوري للسيرة الشعبية**، القاهرة، دار عين، ٢٠٠٩، ص ١٧.
(٣) أحمد شمس الدين الحجاج، **مولد البطل في السيرة الشعبية**، كتاب الهلال،ع٤٨٤، ١٩٩٩م، ص٢٨.
(٤) قاسم عبده قاسم، **ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٢٣٦.
(٥) فاروق خورشيد، **مكان السيرة**، مجلة الكاتب، ع ٢٦، مايو ١٩٦٣م، ص ١٤.
(٦) قاسم عبده قاسم، **بين التاريخ والفولكلور**، دار عين، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢٤، ١٧٤،٤٤.
(٧) قاسم عبده قاسم، **السيرة الشعبية مصدرًا لدراسة التاريخ الاجتماعي قراءة في السيرة الظاهرية**، ضمن كتاب (بين الأدب والتاريخ)، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٤٠-١٤١.
(٨)قاسم عبده قاسم، **بين التاريخ والفولكلور**، ص ١٣٤.
(٩) محيي الدين ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
(١٠) شافع بن على الكاتب، **حسن المنقب المنتزعة من السيرة الظاهرية**، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٦٧م.
(١١) عز الدين بن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، تحقيق أحمد حطيط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م.
(١٢) سوزان إبراهيم، مقال "**الظاهر بيبرس آخر السير الشعبية – اختفاء الحكواتية أوقف الإضافات**"، صحيفة الثورة – دمشق-الأحد ٢٧-٩-٢٠٠٩م.
(١٣) طبعت **السيرة** في القاهرة بدون تاريخ باعتناء عبد الحميد أحمد الحنفي بشارع المشهد الحسيني ونفذت منذ وقت طويل، كما أعيد طبعها في مجلد واحد في بيروت بالمكتبة الثقافية أيضا بدون تاريخ لكن تخلو من الأشعار. وأعيد طبع **السيرة** حديثًا طبعة مصورة عن طبعة عبد الحميد أحمد حنفي وقدم لها جمال الغيطاني بالهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٦م.
(١٤) **السيرة** ج١ ص ٤٤-٤٥
(١٥) **السيرة** ج١، ص ٤٥-٤٦
(١٦) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢٣، ط١١، تحقيق بشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م، ص١٨٧، صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، **الوافي بالوفيات** ج١٠، تحقيق أحمد الأرناؤط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ، ص٣٥، جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج٦، القاهرة، وزارة الثقافة، ص ٣١٩، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، **شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب**، تحقيق ناظم رشيد، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٧٨م، ص٣٦٧.
(١٧) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب**، ج٤، تحقيق محمد حسنين ربيع وسعيد

عاشور، القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٧م، ص٢٢٥، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص ١٤٨، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣١٩، أحمد بن على المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج١ق١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتب، ص٢٢٥.

(١٨) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص٢٧٧-٢٧٨، النويري، **فنون الأدب**، ج٢٩، ص١٦٠، المقريزي، **السلوك** ج١ق١، ص٢٤٠،٢٣٨، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٦٧، المكين بن جرجس بن العميد، **أخبار الأيوبيين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت، ص ١٧

(١٩) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص ٢٧٨، المقريزي، **السلوك** ج١ق١، ص٢٤٠.

(٢٠) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٢، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ١٧٢، ١٩٠، المقريزي، **السلوك**، ج١ق١، ص ٢٤٠، ٢٤٤، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٦٧.

(٢١) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٣، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٣٤، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٣.

(٢٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٥، ص ٢٠٢، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٢٤، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة** ج٦، ص ٣٠٥، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٣٩-٢٤٠، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة، دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٦م، ص٢٧٤، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٦٨.

(٢٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٠٤-٢٠٥، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٠٦.

(٢٤) الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، ج٣، تحقيق محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٩٩-٢٠٠، ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٠٦-٢١٤، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٢٥) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٥، ص ٢٠٦، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٥، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٤٩-٢٥٠، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٨١، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٦٩.

(٢٦) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢١٦، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٥٩، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٨٦، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٧١.

(٢٧) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٢٨، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٦٠-٢٦١، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٨٦-٢٨٧، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة** ج٦، ص ٣٠٦.

(٢٨) ابن واصل ن **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٣٢-٢٣٣، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٦١-٢٦٢، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٨٧-٢٨٨، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة** ج٦، ص ٣٠٧.

(٢٩) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٩، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة** ج٥، ص٣٠٧، ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٢٧.

(٣٠) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٣٩، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٧٢.

(٣١) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٤٠، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٢٩، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٦٣-٢٦٤، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ٢٨٩، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٠٨.

(٣٢) أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ٢٠١، ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص٢٤٤، النويري، **نهاية الإرب**، ج٢٩، ص ٢٦٤ المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٩٠، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٧٣،

(٣٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ٢٥٧-٢٥٩، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٢٩، النويري، نهاية الإرب ج٢٩، ص ٢٦٦.

(٣٤) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٢٦٢-٢٦٥، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ٢٠٢، النويري، نهاية الإرب ج٢٩، ص ٢٦٧-٢٦٨، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٩٤-٢٥٩.

(٣٥) **السيرة** ج١ ص ٩٨-١٠٠

(٣٦) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص٨٢، أبو بكر بن عبد الله ابن آيبك الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر** -الدر المطلوب في اخبار ملوك بنى ايوب ـ تحقيق سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٣٧٠.

(٣٧) النويري، نهاية الإرب ج٢٩، ص

٣٨) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ٨٢

(٣٩) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٨٢، محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج١ق١، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٦٩.

(٤٠) **السيرة** ج١ ص ٧٥٦ -٧٧٣، ج٢ ص ٧٨٧ - ٧٩٣.

(٤١) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص٣١٤-٣١٥، ٣٢٠-٣٢٩، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج ٦، ص٢٧٥، ٢٧٨،٢٩٣، ٢٦٩، أبو الفدا الحافظ بن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة ط٥، ١٩٩٨م ص ١١١، ١٤٨، ١٦٧،١٥٣،١٤٩.

(٤٢) ابن آيبك الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر** -الدر المطلوب، ص٣٠٥-٣٠٦، المقريزي، **السلوك** ج١ق١، ص٢٤٢، ٢٥٧، انظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٧/ ص ١٩٣، ٢٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم ج٦، ص ٢٧٨.

(٤٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج ٥، ص ٣٣٢،٣٠١-٣٣٣، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ٢٠٩، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣١٥.

(٤٤) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص٣٣٦-٣٤٠، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص٢٠٩، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٣-٣٥، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص٣١٦-٣١٨.

(٤٥) **السيرة** م٢ ص ٩٧٨-٩٨٣.

(٤٦) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، تحقيق عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٧٢، سالم محمد الحميدة، **الحروب الصليبية**، ج٤، دار الشؤن الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٥٩.

(٤٧) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٦، ص ٦٣-٧٠، أبو الفداء، **المختصر** ج٣، ص ٢١٥؛ الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٤١٢.

(٤٨) ابن ايبك الدواداري، **الدر المطلوب**، ص ٣٦٦، ميخائل زابوروف، **الصليبيون في الشرق**، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م، ص٣١٢.

(٤٩) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٧١، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ٢١٦، المقريزي، **السلوك** ج٢ق٢، ص ٣٣٣، المقريزي، **السلوك** ج١ ص٤٣٧، جوزيف نسيم، **العدوان الصليبي على الشام**، القاهرة، دار الكتب الجامعية، ط٣، ١٩٧١م، ص ٥٤-٥٥.

(٥٠) الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص٣٧٩، جوزيف نسيم، **العدوان الصليبي على الشام**، ص ٥٤-٥٥.

(٥١) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص٧٢-٧٣، المقريزي: **السلوك**، ج١، ق٢، ص٣٣٣.

(٥٢) زين الدين عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٩٦م، ص٢٥٩؛ أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ٢١٦، الحنبلي **شفاء القلوب**، ص٣٧٩.

(٥٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٧٣-٧٤، المقريزي، **السلوك** ج٢ق٢ ص ٣٣٥، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٣٠، سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج٢، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠م، ص ٢٨٨.

(٥٤) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص٧٤-٧٥، أبو الفدا **المختصر**، ج٦، ص ٢١٦-٢١٧، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٧٩ المقريزي: **السلوك**، ج١، ق٢، ص٣٣٥-٣٣٦، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٣٠. ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج٢ق١، ص٢٧٨، سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج٢، ص ٢٨٨، جوانفيل، **القديس لويس وحملاته على مصر والشام**، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٨، ص ٩٦.

(٥٥) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٧٦، المقريزي، **السلوك** ج١ ق٢، ص ٣٣٧، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦ ص ٣٣٠، جوزيف نسيم، **العدوان الصليبي**، ص٦٣.

(٥٦) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٧٦، المقريزي، **السلوك** ج٢ق٢، ص ٣٣٧، جوانفيل، **القديس لويس**، ص ١٠١.

(٥٧) المقريزي، **السلوك** ج١ ص ٣٤٦، جوانفيل ص ١٠٣.

(٥٨) ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨ ص ٧٧٤، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين** ص ٣٧، ابن كثير ج١٣ ص ٢٠١، المقريزي، **السلوك** ج١ ص ٣٣٩.

(٥٩) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج٤، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢١٠، **السلوك** ج٢ق٢، ص ٣٣٩، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٨٠، ابن إياس، **بدائع الزهور** ج٢ق١، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٦٠) **السيرة**، م١، ص ٤٦.

(٦١) المقريزي، **السلوك** ج٢ق٢، ص ٢٩٨.

(٦٢) النويري، **نهاية الإرب**، ج٢٩، ص ٣٣٤، المقريزي، **السلوك** ج٢ق٢، ص٣٣٣.

(٦٣) **السيرة**، م١، ص٥٥.

(٦٤) **السيرة**، م١، ص ٥٥.

٦٥) **السيرة**، م١، ص ٧٠.

٦٦) **السيرة**، م١، ص ٦٢.

(٦٧) **السيرة**، م١، ص ٦٩.

(٦٨) **السيرة**، م١، ص ٥٥

(٦٩) **السيرة**، م١، ص ٨٩.

(٧٠) **السيرة** م٢، ص ٩٦٥.

(٧١) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٨، ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ١١٩، ١٣١، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٦٤، ٣٧٠.

(٧٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٦، ص ١٢٨-١٣٠، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٣٧، المقريزي، **السلوك**، ج٢ق٢، ص٣٥٨-٣٦٠، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٧٠-٣٧١، بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص٨، ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ص٥٢٠.

(٧٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ١٣٢، ١٤٠، ١٩٤، ٢٠١، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٩, ٤٣، المقريزي، **السلوك** ج٢ق٢، ص٣٦١، ٣٦٨، ٤٠١-٤٠٤، بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ٨-٩.

(٧٤) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ١٩٦، ٢٩٠-٢٩٣، ٢٩٧، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٤٤،٤٧-٤٨، ٥٣-٥٥، المقريزي، **السلوك** ج٢ق٢، ص ٤٠٥، ٤١٧، ٤٢٩-٤٣٢، ٤٣٥، بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص ١٠-١٢.

(٧٥) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٣٧، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٦، ص ٨٣، ابن أيبك الدواداري، **كنز الدرر**-الدر المطلوب، ص ٣٧٠.

(٧٦) المقريزي، **السلوك**، ج٢ق٢، ص٣٤٠-٣٤١، النويري، **نهاية الإرب**، ج٢٩، ص ٣٣٦.

(٧٧) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٧، ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ص٥١٤-٥١٥.

(٧٨) ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٣٦-٣٣٧.

(٧٩) **السيرة**، م٢ ص ٩٦١-٩٦٦.

(٨٠) ابن تغرى بردى، **النجوم**، ج٦/ ص ٣٢٨، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٧٩.

(٨١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٤٧، ص ٣٥٨.

(٨٢) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٨٠، المقريزي، **السلوك** ج٢ق٢، ص ٣٤٢.

(٨٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ١٤٣-١٤٤، المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج٤، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٧م، ص ٢١٠، **السلوك** ج٢ق٢، ص ٣٣٩، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٨٠، ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١/ ق١، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٨٤) **السيرة**، م١، ص ٤٤-٤٥.

(٨٥) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ١٥٦ – ١٦٠، النويري، **نهاية الإرب**، ج ٢٩، ص ٢٢٨.

(٨٦) **ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر**، جـ٧، ص ٢١١.

(٨٧) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٢.

(٨٨) شهاب الدين ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب**، ج٧، تحقيق عبد القادر الأرناؤط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩١م، ص ٣٠٤.

(٨٩) ابن واصل، ج٤، ص ٢٤٣، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣٥٤، النويري، نهاية الإرب، ج ٢٩، ص ١٥١.

٩٠) المقريزي، **السلوك** ج١ق١، ص ٢٥٥، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ١٩٥.

(٩١) ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٢٧٣، سعيد عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، القاهرة، دار النهضة العربية، ص ١٢٠-١٢١، السيد الباز العريني، **المغول**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م، ص ١٢٧.

(٩٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ١٣٥.المقريزي، **السلوك**، ج ١ق٢، ص ٢٧٠، العريني، **المماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢م، ص ٤٤.

(٩٣) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١٣٥. المقريزي، **السلوك**، ج ١ق٢، ص ٢٧٠، العريني، **المماليك**، ص ٤٤.

(٩٤) المقريزي، **السلوك**، ج ١ق٢، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٩٥) المقريزي، **السلوك**، ج ١ ق٢، ص ٣١٦-٣١٩.

(٩٦) الذهبي، **دول الإسلام**، ج ٦، ص ١١٢، المقريزي، **السلوك**، ج ١ق٢، ص ٣١٨-٣٢١، ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨ ٧٤١، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٣، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٦، ص ٢٨٦-٢٨٧، أبو الفدا، **المختصر**، ج٣، ص ٢٠٩-٢١١.

٩٧) ابن الوردي، تتمة **المختصر**، ج ٢، ص ١٧٥، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج ٥، ص ٣٥٠، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٦، ص ٢٨٧، المقريزي، **السلوك**، ج ١، ص٤٢٤.

(٩٨) ابن واصل **مفرج الكروب**، ج٥، ص٣٥٠-٣٥٩، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص٢١٢-٢١٣، ابن كثير، ١٥٠-١٥١، المقريزي، **السلوك** ج٢ق١، ص ٤٢٧، النجوم ج٦، ص ٢٨٧-٢٨٨، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٤ ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ص ٧٦٠-٧٦٢، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٣٨، سعيد عاشور، **الحركة الصليبية** ج٢، ص ٢٧٤-٢٧٥.